نشأة الكتابة وتطوّرها في اللغة العربية

غلام مصطفى مير•

بدأت الكتابة بعد مجئ الإسلام وإن توجد قبله في العصر الجاهلي ولكن على نطاق ضيّق لم يكونوا أهل كتابة ومع هذا لم تكن تلك التكابة نادرة أيضا كما أنهم يكتبون بينهم العقود والمواثيق، ويكتبون الرسائل في بعض الأحوال وأن الشعراء كانوا يدوّنون أشعارهم أيضا. يذكر شوقي ضيف بهذا الصدد:

"وإذا فالعرب استخدم الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وُجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنّية".(١)

عرف العرب في العصر الجاهلي الكتابة ولكنهم لم يتركوا خلفهم ما نعرف بها عن أحوالهم التاريخية الأدبية غير أنهم نقشوا وكتبوا الوثائق التجارية والسياسية؛ لأننا لا نرى لديهم الرغبة والشغف في تدوين تاريخهم الأدبية يمكن أن قلة وسائل الكتابة لم تتسنّ لهم هذا. وإلاّ يمكن الإنكار عن حياتهم الأدبية، بل أدبهم فكان أرقى الآداب في أيامهم ولا يزال الأدب الجاهلي إلى اليوم أبرع النماذج الأدبية.

جاء الإسلام وشجّع رسول الله عليه السلام الكتابة وأخذت الكتابة تروج في العصر الإسلامي بهذا تشجيع الرسول صلى الله عليه وسلم وشاهدنا أن الرسول صلي الله عليه وسلم جعل فداء بعض أسارى قريش في بدر ممّن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة وكذلك خصّ القرآن الكريم على اتخاذ الكتابة في المعاملات كما قال جلّ شأنه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ
وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ

• الباحث في الدكتوراه في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر.

﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾. (البقرة: ٢٨٢)

وبعد ذلك شاعت الكتابة في العرب إطاعة لأمر الله تعالى ورسوله عليه السلام وظهرت جماعة من الكتابة تخصصوا بكتابة الوحي، أمثال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وغيرهم من أجلّة الصحابة. وعني الصحابة بكتابة الوحي عناية واسعة كما أنهم عنوا بها في كثير من شئون المسلمين حتى لنرى النبي عليه السلام يكتب كثيرا من العهود والأمان ومن المعاهدات كما كان عليه السلام يكاتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام وتبعه بعده الخلفاء الراشدون على هذا النمط يكاتبون ويعقدون من تعاهدات، ولكن لم تزد الكتابة على ذلك في هذا العصر حتى نرى في العصر الأموي أن كثرت الرواية وأدت هذه الرواية أهل العصر إلى التدوين. حقا وقد وضع الإسلام بالأسس لحركة علمية وتاريخيه وأخذت هذه الحركة العلمية تتسع في العصر الأموي على التدريج حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى الثروات الأدب العربي. ولدينا معلوم إنّ كل ما كسبه العرب من معارف إنما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم والمعرفة إذا القرآن الكريم كان من أهم العوامل التي بعثت تلك الحركة.

احتاج المسلمون في تفسير الآيات القرآنية إلى سبب نزولها والمكان الّذي نزلت والحوادث الّتي تشير اليها تلك الآيات ومن الواضح أن معرفة هذه الأشياء تحتاج إلى بحث تاريخي ومناقشات وتحقيق. وقد أكثر القرآن من الإشارات إلى الأمم والقبائل والأنبياء في قصصه، فرغب العلماء في فهم هذه الإشارات وتوضيحها واستفادوا لمعرفتها ممن شرّفهم الله بنعمة الإسلام من اليهود والنصارى: أمثال كعب بن الأحبار ووهب بن منبه اللذان يذكران للمسلمين قصص التوراة والإنجيل ويشرحانها لهم وفق حاجتهم واستطاع المسلمون أن يستخدموا تلك الأخبار المشهورة بالإسرائيليات وتفسير الآي القرآن والتاريخ ولا تزال آثار تلك الإسرائليات باقية في كتب التاريخ والتفسير الّتي وصلت إلى أيدينا.

والحديث النبوي الشريف أيضًا من عوامل تدوين التاريخ، إذ عني المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن الكريم ويستنبطوا منها أحكام الّذين ويعرفوا بها حياة النبي المباركة عليه السلام وحياة

الصحابة. فصارت تلك أساس كتب السيرة والمغازي فيما بعد.

ووقع احتكاك العرب بالأعاجم بعد الفتوح وانتشار الإسلام إلى بلاد هؤلاء الأعاجم. وكانوا يفخرون على العرب بتاريخ آباءهم وحضارتهم ويروون لهم مما أقاموا بها آباءهم من المآثر والأعمال الجبارة في الماضي. والعرب إن كانوا حديث عهد بالحضارة ولكنهم ليسوا أقل مجدا ومكانة. فتوجهوا إلى ابتكار تاريخ لهم يسطيعون به الوقوف تجاه هذا الفخر الأجنبي. فأصبح هذا أيضًا سببا لتدوين تاريخهم وكذلك دعت حاجة في نظام الحكم الاسلامي خاصة في النظام المالي إلى التدوين التاريخي. لأن الضرائب على البلدان الّتي دخل المسلمون فيها فاتحين تتباين حسب فتحها صلحًا أو عنوة أو بعهد.

وكلما مضى المجتمع العربي في العصر اتسعت التاثرات بما لدى الأجانب. كان العرب ناشرين للدين الاسلامي، اتصلوا بيهود ومجوس ونصارى وحدثت بينهم وبين هؤلاء جميعًا أحاديث ومناقشات ومحاورات تسرّب في أثنائها كثير من الفكر الأجنبي وخاصة من شعب الفكر اليوناني في الفسلفة والمنطق. وقد أخذوا يقفون على طرق استغلال الأرض وغير ذلك من مسائل الحياة العلمية وعاشوا في القصور وقام الأجانب - أكثرهم الفرس – على خدمتهم وتهيئة حياتهم المادية واطّلعوا على نظم التعليم عندهم وما أنشأوا من مدارس. أن الكتابة نمت في العصر الأموي نموّا واسعًا. فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات وقد ألّفوا فعلا كتبا كثيرة، بعضها ديني خالص يتّصل بمسائل الفقه والتشريح الاسلامي ونرى المحدثين طوال القرن الأوّل للهجرة كانوا يختلفون فيما بينهم، منهم من يكتفي برواية الحديث ومنهم من يدوّنه حتى إذا وصلنا إلى رأس المئة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه تدوينًا عامًا والأوّل ممن بادروا إلى جمع الحديث ابن شهاب الزهري المتوفي سنة ١٢٤هـ. فكتب المؤرخون في مغازي الرسول عليه السلام وعلى رأسهم أبان بن عثمان(٢). وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتهمّون بتاريخ وطنهم وفي مقدمتهم عبيد بن شريه الجرهمي اليماني الّذي كان يفد على معاوية وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان. يُذكر أنه دوّن لمعاوية بن أبي سفيان الأخبار

الّتي يحدّث له بها في الليل وألّف وهب بن منبه في الأخبار وكذلك محمّد بن عبد الرحمن العامري ألّف في الفقه وكما ذكرت من قبل ألّف محمّد بن مسلم الزهري في الحديث النبوي الشريفه. وكذلك نرى أن بدأ النقل من العلوم الأجنبية في هذا العصر الأموي أيضًا ولكن مع هذا كله لم يصل إلينا شئ مما ألّف في هذا العصر غير أننا نعلم عدة من أسماء الكتب فقط.

المؤرخ عمر فروخ يكتب بهذا الصدد:

"اتسعت الرواية في العصر الأموي، فقد روى القرآء القرآن الكريم بقراءاته وتفسيره. وروى المحدّثون حديث رسول الله عليه السلام عن أهل الجيل الّذين سبقوهم. وكذلك روى علماء اللغة والأمثال والنحو والأدب والتاريخ والّذي يبدو بيّنا من كتاب الفهرست لابن النديم أن التدوين كان معروفا وأنه أصبح في العصر الأموي مألوفًا، فقد أشار معاوية بن أبي سفيان على عبيد بن شريه بأن يدوّن الأخبار الّتي كان يحدُثه بها.

ولقد عرف العصر الأموي تدوينا بمعنى التأليف منسوبا إلى وهب بن منبه (المتوفي ١١٤هـ) في الأخبار وإلى محمّد بن عبد الرحمن العامري (المتوفي ١٢٩هـ) في الفقة وإلى محمّد بن مسلم الزهري (المتوفي ١٢٤هـ) في الحديث، ولكن لم يصل إلينا شئ من تدوين ذلك العصر ولا مما يجب أن يكون قد ألّف فيه من الكتب".(٣)

وذكر أحمد حسن الزيات عن أبي الأسود الدولي المتوفي سنة ٦٩هـ (أول من وضع مبادئ النحو عند البعض) أنه استأذن من زياد بن أبيه والي العراق أن يضع للعربية بعض القواعد النحوية لتصون من اللحن لأنه رأي أن العرب قد خالطت الأعاجم ففسدت ألسنتهم فأذن له الأمير ووضع أبو الأسود باب التعجب ثمّ باب الفاعل والمفعول. وأخذ كلما سمع لجنة وضع القاعدة الّتي تصلها. وأنقل مما كتب أحمد حسن الزيات في تدوين أهل ا لعصر الأموي بعد ذكر عن أبي الأسود الدولي. يكتب: "وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال

مجهولة" وأيضًا يكتب:

"لم تكن نفوس العرب مهيّأة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة وتشعبت عليهم الأقضية وضعوا النحو لضبط القرآن والتفسير لحل مشكلة والفقه لاستنباط الأحكام منه ودوّنوا الحديث خوفا من ضياعه أو افتعاله.
واقتضت حنكة معاوية وحكمة الخلفاء أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكهم بتجارب الماضيين وأخبارهم.
فألّف عبيد بن شريه "كتاب الملوك وأخبار الماضيين المعاوية وربما كتب غيره غيره ولكن شيئا من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تعن أحدًا في هذا العصر. اللهم إلاّ خالد بن الوليد حفيد معاوية. فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك. استقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئا منها.
وجملة القول في هذا العصر كان فيه نضج الآداب الجاهلية ونشؤ العلوم الإسلامية وبداية النقل من العلوم الأجنبية". (٤)

ويقول شوقي ضيف أيضًا في التأليف والتدوين في العصر الأموي:

"رأينا الكتابة في العصر الأموي تعالج موضوعات علمية وتاريخية، كما تعالج رسائل سياسية واجتماعية ودينية، وليس بين أيدينا وثائق صحيحة تصور كيف كانوا يعالجون مسائل العلم والتاريخ، وحقًّا مرّ بنا أنه طبع لعبيد بن شريه كتاب في أخبار اليمن كما طبع لوهبه بن منبه كتابه "التيجان في ملوك حمير" ولكن الكتابين جميعًا مشكوك في صحّة نسبتهما إليها". (٥)

ويمكننا أن نقول بعد مشاهدة هذه الأراء أن نشأت العلوم وبدأ أشغال التأليف وبدأ النقل من علوم الأجانب في العصر الأموي ولكن

لم يصل إلينا ويمكن أن ضاعت بأيدي الزمان ولا نطّلع على عدة أسماء الكتب فقط كما لاحظنا فيما نقلت أعلاه عن المؤرخين ويمكننا أيضًا أن نقتنع بأن آداب العرب كانت قائمة على الرواية يتناقلها الناس من طريق اللسان، لأن العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظًا وأتمّهم لها. وكانت الكتابة غير طبيعية في نظامهم الاجتماعي ونرى فيهم الاخذ والتحمل. ونقل مصطفى صادق الرافعي في كتاب "تاريخ آداب العرب" واقعة ابن عباس بهذاالصدد يكتب:

> "ولقد روى عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة نهيًا، وقال: إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة. وجاوءه رجل فقال: إني كتبت كتابا أريد أن أعرضه عليك، فلما عرضه عليه أخذ منه ومحاه بالماء. ولما سئل في ذلك قال: إنهم إذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم".(٦)

وقول العرب: "من حفظ حجة على من لا يحفظ" مشهور.

والغرض أن العرب في البداية ما كانوا يعتمدون في الغالب على التأليف والكتابة بل يعتقدون الكتابة عيبًا ونقصانا إن ثقتهم كانت بالحفظ وفخرهم عليه. وما عنوا بهذه الكتابة إلاّ بعد احتكاكهم بالأمم الأجنبية كما ذكره شوقي ضيف في مؤلفته "الفن ومذاهبه في النثر العربي" يقول:

> "ولعلّ من الطريف أن نلاحظ أن هذه النزعة لكتابة التاريخ عند العرب ظهرت في ظروف مشبهة لظهورها عند اليونان. فإن من المعروف أن اليونان لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلاّ بعد حروبهم مع الفرس واتصالهم بالعالم الخارجي. وكذلك كان الشأن عند العرب فإنهم لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلاّ بعد طروبهم مع الأمم الأجنبية وفتوحهم....".(٧)

كما أني ذكرت غير هذا الموضع أن العرب مالوا إلى كتابة تاريخ آباءهم بعد الاحتكاك بالأعاجم ليستطيعوا به الوقوف تجاه الفخر الأجنبي بما أقام به آباء هؤلاء الأجانب من المأثر ومن الأعمال الفخمة في الماضي.

بعد العصر الأموي بزغت شمس العصر العباسي وصارت

العربية هي لغة العالم الاسلامي كله في الكتابة العلمية والأدبية وتفتحت لهذه اللغة كنوز العلم والمعرفة وانتهت إليها روافد الثقافة من شتى أقطار الأرض. والعصر العباسي بلغ مبلغ الكمال في العمران والحضارة والفنون والآداب العربية ونقل العلوم الأجنبية وفنونها كما أنها استحكمت صلات اللغة العربية بلغات الأجانب الّتي بذرت بذورها في العصر الأموي وجعلت أفكار العرب وعقولهم وآدابهم تتأثر بهذا الاحتكاك كما تأثروا به في ملابسهم ومآكلهم ومشاربهم وغير ذلك من السكن والمحافل ولا ريب في أن الأجانب أسهموا في ترقية ثقافة العرب وفنون آدابهم وحضارتهم وحكمهم أيضًا ونضج العقل العربي فوجد سبيلا إلى البحث ومجالا للتفكير. وبالجملة نال هذا العصر من الازدهار والرقى ما لم ينل من قبل ومن بعد. وكان التدوين بلا ريب في هذا العصر الذهبي المظهر الأدبي الّذي برز فيه بروزا عظيمًا فغلب التدوين وجعل الرواة والعلماء يكتبون ما يسمعونه وما يخطر في بالهم واتسع النقل وتدوين المنقول من الحكم وآداب السلوك وفنون العلم والفلسفة عن اللغة الفارسية والسريانية واليونانية والهندية. وظهرت في هذا العصر مؤلفات كثيرة تحوي على الفنون والعلوم المختلفة لا يسعها هذا المكان. وبجانب عن العلماء والأدباء بتأليف الكتب التي يخبرون فيها عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في اشعارهم وقبائلهم وأسماء آباءهم ومن كان يعرف باللقب أو الكنية منهم، ويذكرون فيها ما يستحسن من أخبار الشاعر وما يستجاد من شعره وما سبق إليه المتقدمون رواية فأخذوه عنهم المتأخرون كتابة. فظهرت من أقلام المؤلفين كتب الطبقات والتراجم والمختارات وأخذوا يؤلفون في الشعر والشعراء والأدب والأدباء فأصبحت تلك الكتب أساسا ومصدرا لتأريخ الأدب العربي بعد مضى العصور أما كتب الطبقات فأشهرها طبقات أبي عبيدة الرواية (٢٠٩هـ) وطبقات محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) وطبقات محمد بن حبيب النحوي (٢٤٥هـ) وطبقات ابن قتيبة (٢٩٦هـ).

وطبقات ابن قتيبة هذه المعتمد عليها في هذا الباب. أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدنيوري ولد سنة ٢١٣هـ وهو يعدّ أكبر مؤلّف أدبي ظهر في العصر بعد الجاحظ. طبقاته من أهم الكتب

للشعراء ويعدّ مصدرًا أصيلاً ومرجعا هامًّا في بابه. لم يحرص المؤلّف في هذا الكتاب على استيفاء الشعراء وحصرهم وتقضي سيرهم بل اقتصر على المشاهير منهم، كما أنه قال في مقدمة الكتاب:

"وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب والذين يصح الاحتجاج بأشعارهم في الغريب".

وكان همّ ابن قتيبة الترجمة وجمع أخبار الشعراء واختيار طائفة من أشعارهم يسوقها تمثيلا أو بمناسباتها. والكتاب كثير الشعراء غزير النصوص تضمن ١٨٠ ترجمة بدأها بامرئ القيس وأطال القول يه لاستفاضة أخباره عندهم ولتقديمهم له على الشعراء. هذا الكتاب يعدّ كتابا في المختارات الشعرية وكتابا في النقد بالإضافة إلى كونه كتابا في تراجم الشعراء. طبع هذا الكتاب لأول مرة في مدينة ليدن سنة ١٧٨٥م.

ووضع ابن المنجم نديم المكتفى بالله (٣٠٠هـ) لأخبار شعراء مخضرمي الدولتين "كتاب الباهر" ابتدأ فيه ببشار بن برد ولكن لم يكمل عمله وأكمله ولده أبو الحسن أحمد بن يحيى وعزم على أن يضيف إلى كتاب أبيه سائر الشعراء المحدثين.[٨]

ووضع أبو الفرج الأصبهاني كتابه الشهير "الأغاني" وهو نادرة التب، جمع فيه أخبار ٤٩٦ شاعرا بين جاهلي ومخضرم وإسلامي ومحدث وهو منقول عن كتب كثيرة وضعت قبل هذا الكتاب. لهذا الكتاب واحد وعشرون جزءًا. ولم يعمل في بابه مثله جمع هذا في خمسين سنة. وقال بعض المؤرخين:

"لولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية". ومن كتب التراجم أول ما وضع منها "كتاب البارع" في أخبار الشعراء المولدين لهارون بن علي المنجم البغدادي (٢٨٨هـ) جمع فيه ١٦١ شاعرا. افتتحه بذكر بشاربن برد وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح. وهذا التكاب هو الأصل الّذي احتذاه من جاء بعده[٩]. ووضع عماد الدين الكاتب الأصفهاني في (٥٩٧هـ) كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" ترجم فيه الشعراء من سنة ٥٠٠هـ إلى سنة ٥٧٢هـ ووضع أيضا كتاب "السيل على الذيل" جعله ذيلا للخريدة.

ووضع ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) كتاب "معجم الشعراء" وكتاب آخر "إرشاد الألبّاء في معرفة الأدباء" وهو المعروف بمعجم الأدباء. ثم وضع ابن خلكان كتابه "وفيات الأعيان" وعدّ فيه طائفة من الشعراء في كل عصر. وذيل عليه أقوام حتى وضع الكتبي "فوات الوفيات" ثم وضع صلاح الدين الصفدي كتابه "الوافي بالوقيات" انتهى فيه إلى آخر سنة ٧٦٠هـ جمع فيه أعيان كل فن وكذلك الكتب التي صنفها الأندلسيون وهي أبلغ ما كتب من نوعها. كالعقد الفريد لابن عبد ربه وهو أشهر شعراء الناصر (المتوفي سنة ٣٢٨هـ) وهو الّذي نظم بعض غزواته في أرجوزته المشهورة.

وجملة القول عمت الكتابة في العصر العباسي على النطاق الواسع التي شجّعها الإسلام وشجّعها النبي عليه السلام في عصره وظهرت مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون والأدب العربي ويستمرّ هذا الشأن حتى الآن.

ناهيك بأن نعلم ما ألّفت وصنّف في العصر العباسي وبعده من تراث الفكر العربي كانت متشتّة ومتفرقة في مكتبات العالم وخزائن الكتب ومع هذا أن كتب الطبقات والتراجم والمختارات التي أصبحت أساسا وموادًا لتاريخ الأدب العربي في العصر الجديد. تكتفي بعدّ أسماء الأدباء من كتاب وشعراء وعلماء وفلاسفة وبسرد أسماء المصنفات والمؤلفات في مختلف فروع العلوم والمعارف والآداب وأول من أراد حصر ما تشتّت واحصاء ما تفرق من تلك التراث العربي المستشرق كارل بروكلمان "ليتخذ من ذلك آيات بينات للفخر والإعتزاز أو عدّة ومددا للبعث والإحياء أو يتطلّع أخيرا إلى معرفة ما ترجم إلى لغات العالم من ذلك التراث الخالد وما أثير حوله من بحوث، وصُنّف من دراسات خطا العلم والأدب دفعتها إلى الأمام في الشرق والغرب". (١٠)

هذا من أهم الأبحاث يتطلب الوقت والمكان وأرجوه في المستقبل انشاء الله تعالى.

المراجع:

١. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ٢٠
٢. طبقات ابن سعد: المجلد الخامس، ص: ١١٢
٣. عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأول ص: ٣٧٩
٤. أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ص:
٥. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ١٠٥-١٠٦
٦. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، (الأول) ص: ١٨١
٧. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص: ١٠٢
٨. الكتبي: فوات الوفيات، الجزء الثاني، ص: ٢١١
٩. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، ص: ٢٢٦
١٠. الدكتور عبد الحليم النجار: مقمة تاريخ الأدب العربي، (ص: ط) لكارل بروكلمان